الاستقرار في مناطق الغرب الافريقي ودوره في تعزيز الأمن في المغرب العربي: قراءة في الروابط التاريخية والحضارية المشتركة

La stabilité dans les régions de l'Afrique de l'Ouest et son rôle dans le renforcement de la sécurité au Maghreb arabe: une lecture des liens historiques et civilisationnels

د. محمد المختار جي، رئيس مركز البحوث والدراسات الافريقية، داكار ، السينغال

ملخص الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على الروابط التاريخية والحضارية المشتركة بين منطقة غرب إفريقيا، ومنطقة المغرب العربي، إذ تعود إلى أزمنة بعيدة حتى ما قبل الفتح الاسلامي. كما تركز على منظور المتغير التاريخي والحضاري كأساس للتعاون وبناء جسور الثقة بين المنطقة المغاربية ومنطقة غرب افريقيا وما من شأنه أن يعود بالفائدة على شعوب الساكنة اقتصاديا واجتماعيا وحتى اقتصاديا. وتخلص الدراسة أن استقرار منطقة غرب افريقيا يساهم بشكل كبير وفعال في أمن منطقة المغرب العربي.

الكلمات المفتاحية:

منطقة غرب افريقيا، المغرب العربي وافريقيا، استقرار القارة الافريقية، شمال وغرب افريقيا.

Résumé de l'étude:

L'étude vise à mettre en évidence les liens historiques et culturels communs entre l'Afrique de l'Ouest et la région du Maghreb, datant de l'époque pré-islamique. Elle se focalise sur la perspective de la variable historique et culturelle comme base de coopération et de construction des liens de confiance entre le Maghreb et la région de l'Afrique de l'Ouest.

L'étude conclut que la stabilité de l'Afrique de l'Ouest contribue de manière significative et efficace à la sécurité du Maghreb.

Mots-clés:

Afrique de l'Ouest, Maghreb et Afrique, stabilité du continent africain, Afrique du Nord et de l'Ouest.

مقدمة:

لعبت العلاقات الثقافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والحضاريّة بين شمال إريقيا وغربها عبر التاريخ دورا بارزا وهاما في توسيع دوائر وشبكات الاتصالات بين المنطقتين ، ودعم الروابط بينهما. وتعود تلك العلاقات إلى ما قبل الفتح الإسلامي ، فقد أقام التجار العرب والبربر علاقات اقتصادية وثقافية مع الأفارقة وخاصة في الغرب الافريقي، ولم تكن الصحراء أبدا حاجزا او عائقا لتنقلات القوافل التجارية وتحركات الشعوب عبر القارة من شمالها إلى غربها كما كان يزعم بعض الباحثين الغربيين ، فالصحراء

الكبرى كانت دائما تمثل حلقة التواصل الثقافي والحضاري بين المنطقتين وكانت هناك طرق برية معروفة ومعهودة تربط بين الشمال والغرب وكان التجار يستخدمونها وكذلك أصحاب الفتوحات .

ويرى بعض الباحثين أنه منذ عهد الإمبراطورية الرومانية كانت هناك العديد من الطرق والتي كانت نفسها تتوغل في مجاهل الصحراء إلى بلاد إفريقيا وتولي الإشراف عليها وتنظيم التجارة عبرها قبائل الجرمانت التي كانت تضطلع بدور الوساطة بين الشمال والجنوب وتميزت تلك المسالك **بمرحلتين هامتين:**

_ المرحلة الرومانية التي تميزت بترصيف هذه الطرق .

_المرحلة الثانية التي اتسمت بتوسعها واستعمال الجمل فسميت الطرق الحوافرية. (1)

وكان دخول الجمل التدريجي في مجال هذه العلاقات في أوائل العهد المسيحي وقد سهل كثيرا في ارتياد هذه الطرق وحدوث هجرات من شمال الصحراء الكبرى إلى جنوبها خاصة من جانب البربر مما نتج عنه بصفة تلقائية ازدهار وتطور في العلاقات التجارية والثقافية .

ويبدو أن محاولة التتبع الدقيق لهذه المسالك كثيرا ما تصطدم باضطراب المادة التي تقدمها كتب المسالك والممالك مما يصعب الوقوف عن كثب عند التحولات التي كانت تطرأ عليها و مما يزيد في الأمور تعقيدا اندراس كثير من المدن والمحطات التجارية التي أشار إليها بعض الرحالة والجغرافيين.

لكن مع هذا كله فقد تم تسجيل كثرة المسالك التي كانت تربط بين بلاد المغرب وبلاد السودان والتي تنطلق من عدة مدن رئيسية مثل :فزان ،و القيروان ، وفاس، لتنتهي إلى بعض المراكز في الصحراء كسجلماسة، ودرعة، وصولا بعد ذلك إلى المراكز التجارية والثقافية كاودغست ،وغانا، وجاوو وتمبكتو.

ومنذ ظهور الإسلام في هذه المناطق وخاصة في القرن الرابع الهجري نشطت الحركات التجارية والاقتصادية كما تعددت المسالك مما أدى إلى كثرة الهجرات العربية والبربرية وبروز وازدهار ممالك و امبراطوريات إسلامية في الغرب الافريقي. (2)

إن بعد المسافة ووعر الطرق والمسالك بين شمال إفريقيا وغربها وكذلك طول المدة الزمنية التي كانت تقضيها القوافل التجارية في إفريقيا ساهم إلى حد من التجار إلى الزواج بالسكان المحليين في هذه البلدان التي كانوا يتعاملون معها ، كما ساهم أيضا في خلق شعوب مختلطة كسبت ثقافة جديدة و ساعد في سرعة انتشار الإسلام وثقافته في منطقة غرب إفريفيا. (3)

وكانت في شمال افريقيا مدن تاريخية علمية، ومراكز إشعاع ثقافي فكري وحضاري كان لها دور قوي وبارز في نقل الإسلام و الحضارة الاسلامية إلى الغرب الإفريقي ، فكان على سبيل المثال مدن *برقة وفزان بليبيا والقيروان بتونس وتاهرت وتلمسان بالجزائر وسجلماسة وفاس بالمغرب وولاتة وشنقيط بموريتانيا*مراكز اقتصاد وعلم وثقافة وحضارة اشعت بنورها وضيائها إلى غرب إفريقيا، كما أدى استقرار بعض الممالك والإمارات على أطراف الصحراء في واحات *فزان وحبل نفوسة وغدامس وارجلان في فترة من الزمن إلى ارتباطهم بتجارة الصحراء الكبرى.

وقد ارتبطت الدولة الرستمية والدولة الزبرية الصنهاجية التي تولت أمر إفريقية وبلاد الزاب بعد رحيل الفاطميين إلى مصر بعلاقات تجارية وثقافية وسياسية على بلاد الغرب الإفريقي، واستمر هذا التواصل الثقافي والحضاري بظهور المرابطين كقوة سياسية في المغرب والصحراء وبلاد الدول الإفريقية.(4)

وكان من أبرز وأهم المدن التاريخية العريقة بالشمال الافريقي ذات الصلة الثقافية والاقتصادية والسياسية بالغرب الافريقي :

_**مدينة القيروان** : كانت القيروان منذ القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي مركزا ثقافيا ومنارة دينية حضارية تستقبل طلاب العلم والباحثين عن المعرفة من كل أنحاء العالم وقد لعبت دورا تاريخيا وبارزا في إيصال الإسلام وبث العلوم والمعارف الدينية إلى غرب إفريقيا، و مما يدل على أهمية القيروان ان يحي بن ابراهيم زعيم قبيلة جدالة البربرية ومنشئ دولة المرابطين وعندما أحس بالتزامه بخدمة الإسلام وإنقاذ الأفارقة والبربر من مظاهر الجهل والبدع توجه إلى مدينة القيروان حيث قابل أحد فقهائها وهو أبو عمران الفاسي وتلقى منه ألوانا من الفكر والفقه ثم ذكر له أن ينقل إلى قومه في الجنوب العلوم الدينية ، وقد احاله أبو عمران الفاسي إلى أحد تلامذته فقيه السوس زجاج اللمتوني فاختار له وجاج تلميذه عبد الله بن ياسين الذي ساهم بدور كبير في تأسيس دولة المرابطين (5) و هكذا انبعث من مدينة القيروان التاريخية شعاع العلم والمعرفة ليصل إلى الغرب الإفريقي كما أصبحت في المرحلة اللاحقة كتب ومدونات القيروان من أهم المصادر الفقهية والعقدية والثقافية لغرب إفريقيا .

_**مدينة تاهرت:** تعتبر مدينة تاهرت عاصمة الدولة الرستمية من اكبر المدن في شمال افريقيا في العصور الوسطى والتي كانت لها علاقات سياسية واقتصادية مع افريقيا فيما وراء الصحراء، و كانت تقع تاهرت في مكان يتوسط التل والصحراء وقد حقق لها ذلك السيادة على المنطقة السهولبة الشاسعة وما بها من طرق تجارية تمتد غربا إلى المغرب الأقصى و جنوبا إلى إفريقيا عبر الصحراء، ثم هي تشرف من موقعها على الطريق المار من منطقة التلول إلى أسفل وادي الشلف المؤدي إلى البحر ، ويرى بعض المؤرخين ان الدولة الرستمية بقوتها في فترة من الزمن كانت تشمل رقعة واسعة من المغرب الأدنى و الأوسط فشملت أرض الجزائر وجنوب تونس وغرب وجنوب ليبيا حتى مشارق النيجر والسنغال ، وبذلك سيطرت على منطقة استراتيجية واسعة تمر بها القوافل التجارية بين البحر المتوسط ووسط وغرب إفريقيا الغنية بمواردها من الذهب وريش النعام والعاج وغيرها مما أدى إلى هذه الدولة اقتصاديا .

إن العلاقات يين تاهرت عاصمة الدولة الرستمية وافريقيا جنوب الصحراء كانت في إطار علاقات اقتصادية وثقافية وسياسية قائمة على مصالح مشتركة ، وقد استمرت حتى بعد سقوط الدولة الرستمية حيث هاجر العديد من الرستميين وانصارهم من سكان تاهرت إلى اورحلان وتادمكة وجاوو وغانا وبلاد التكرور وكانم وبرنو واودغشت وغيرها من بلاد السودان الغربي حيث أسسوا لهم أحياء كاملة بل في بعض الأحيان مدنا وقرى نشروا فيها ثقافتهم .(6)

_**مدينة توات :** إن منطقة توات كانت ضاربة في أعماق التاريخ ويعود تاريخ عمارتها إلى ما قبل الإسلام وقد ازدهرت توات منذ القرن الرابع الهجري وقد تحدث عنها كثير من المؤرخين والرحالة العرب والاعاجم كابن حوقل والحسن الوزان و اليغقوبي وابن بطوطة وابن خلدون والقاضي محمود كعت وغيرهم عن اهمية المنطقة ودورها الحضاري. (7)

ويقع إقليم توات في جنوب غرب الصحراء الجزائرية التي هي جزء لا يتجزأ من الصحراء الكبرى الإفريقية ، وكانت توات مهد الحضارات التاريخية الأولى كما كانت نقطة اتصال والنقاء القوافل التجارية القادمة من الشمال إلى الجنوب نحو أسواق افريقيا الغربية . ويرجع أصل السكان في هذه المناطق إلى أصول رئيسة معروفة وهي :

البربر: أصلهم من الشمال وكانوا يعيشون وسط الصحراء

العرب: وقد وفدوا إليها عبر فترات متقطعة وخاصة عندما كثرت منطقة الشمال بالنزاعات والحروب الأهلية

الأفارقة : ويعتبر بعض الباحثين أنهم أقدم العناصر التي سكنت المنطقة (8)

ظلت توات فترة من الزمن مركزا اقتصاديا وثقافيا وعلميا وقد مرت بها أهم الطرق الصوفية وهي الطريقة القادرية إلى غرب إفريقيا عن طريق الشيخ محمد المختار الكنتي أحد أقطاب المنطقة من الناحية الدينية والفقهية. ، وكذلك الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي الذي سكن توات و توفي فيه عام (909) وكان عالما وفقيها له علاقات دينية وثقافية بملوك وأمراء بلاد السودان الغربي وعلمائها وخاصة ملوك الاسيقيين (9)

_**مدينة سجلماسة:** هي مدينة تاريخية كانت تقع وسط واحة كبيرة جنوب الأطلس الكبير، وكانت تعتبر ثاني مدينة إسلامية تشيد بالمغرب الإسلامي بعد مدينة القيروان، ويصفها البكري 'سجلماسة مدينة سهلية حولها أرياض كثيرة لها سور كبير له اثنا عشر بابا لها نهر وهي أول الصحراء ومنها يدخل إلى بلاد السودان إلى غانة كانت عاصمة دولة بني مدرار (140_297 هج _)10

وقد ازدهرت في مدينة سجلماسة مظاهر التجارة والتبادلات الإ

اقتصادية وخاصة تجارة الذهب والملح، وقد أهلها موقعها الاستراتيجي كحلقة وصل أساسية بين مختلف مناطق شمال إفريقيا وبلاد غرب إفريقيا من جهة والمشرق الإسلامي من جهة اخرى على نشر الإسلام بهذه المنطقة وعلى القيام بالدور الريادي والتواصل الحضاري، وكانت أهم العناصر التي شكلت سجلماسة :

الأمازيغ : وهم السكان الأصليون ، وقبيلة *صنهاجة*وقبيلة *مصمودة والعرب والأفارقة*ويبدو أن هذا التشكل الفسيفسائي مكن من ازدهار المدينة وجعلها اكبر مركز إشعاع تجاري وثقافي .يقول ابن حوقل في ازدهار مدينة سجلماسة (ان مدينتي تاهرت وسجلماسة 307 _920 كانت تدر نصف دخل خزينة الدولة الفاطمية ويأتي من مدينة سجلماسة وحدها بفصل التجارة على بلدان جنوب الصحراء)(11)

وبهذا كانت مدينة سجلماسة أبرز دولة مثلت قوة التواصل التاريخي والحضاري بين شمال إفريقيا وغربها.

مدينة فاس: تعتبر مدينة فاس من اكبر العواصم الدينية والثقافية التاريخية في المغرب الإسلامي وتضم فاس منارات دينية وحضارية مثل مساجد وابراج وزوايا ومقصورات تاريخية وتعتبر جامعة القرويين بمدينة فاس من أعرق جامعات العالم الإسلامي وقد لعبت دورا كبيرا في استقبال و تكوين العلماء والدعاة الأفارقة ووخلصة في غرب افريقيا كما برزت اهمية مدينة فاس في كونها مهد الطريقة التيجانية التي تعتبر من اكبر واقدم الطرق الصوفية في غرب إفريقيا من حيث يزور اعداد كبيرة من الأفارقة سنويا مدينة فاس لزيارة ضريح الشيخ احمد التحاني مؤسس الطريقة التيجانية وأخذ إجازات من مقدميها.

ويرجع جل المصادر الفقهية والعقدية في غرب افريقيا إلى المدرسة الفاسية المغربية . مدينة شنقيط :لقد ساهمت مدينة شنقيط التاريخية مساهمة كبيرة وجلية في بناء جسور التواصل الثقافي والحضاري بين شمال افريقيا وغربها ، وكانت بمثابة حلقة وصل بينهما . وقد ربطت مدينة شنقيط ببلاد غرب إفريقيا رابطة تاريخية جغرافية عميقة الجذور قبل الفتح الإسلامي. ولما جاء الإسلام تدعمت العلاقة ثقافيا واجتماعيا وكان الشناقطة يجوبون بلاد غرب أفريقيا ويستوطنون فيها عبر العصور ، وكان لتحارها وعلمائها دور متميز في نقل الإشعاع المعرفي والفكر الإسلامي إلى شعوب غرب افريقيا وقد نشأت أيضا في شنقيط القديمة مراكز حضارية ساهمت في تجارة الصحراء وفي العطاء الثقافي ومن بينها :

مدينة ولاتة: ولاتة (12) ولاتة مدينة عريقة واصيلة، ويقال أنها تأسست منذ القرن الأول الهجري وازدهرت قبل تمبكتو في مجال الثقافة والتجارة وحتى عندما تأسست هذه الأخيرة ظلت المنافسة الأولى لها ، وعندما تصدعت أركان المملكة الغانية تحت ضغط أمراء صوصو هاجر إليها مسلمو غانة وعلماؤهم بقيادة الشيخ إسماعيل في أواخر القرن السادس الهجري وكان ذلك بداية عهد جديد في حياتها الثقافية ، ولما زارها ابن بطوطة في القرن الرابع الهجري رأى أنها أصبحت مركز علم وتجارة (13).

ومن الحوادث التاريخية التي كان لها الأثر في تفوق مركزها الحضاري هجرة علماء الطوارق إليها حينما احتل سوني مدينة تمبكتو عند منتهى القرن التاسع الهجري ، ثم صارت ابتداء من هذا التاريخ مهد علم وحضارة راقية تألق نجم علمائها في جميع ميادين الثقافة الإسلامية. (14)

مدينة ودان: ويعرف في المراجع الغربية بهودن (15) (houdan)وكان سكان اصلها الاصليون جماعة من البربر وجماعة كونتا، وتعني لفظة ودان ان في هذا المكان واديين أحدهما ملئ نخلا وتمرا، والثاني دينا وعلما (16)

وظلت ودان طيلة قرون مركزا للعلوم والتدريس حتى انه يذكر في الروايات الشعبية إنه في الإمكان إحصاء أربعين دارا متتالية في نهج واحد في كل منها عالم له حلقة تدريس وإلى جانب هذه المنزلة العلمية فإنها كانت محطة تجارية تصدر المواشي والمصنوعات الجلدية والذهب ، والتوابل، والعاج ، وريش النعام ،

وبعض الحبوب إلى الشمال كما كانت تصدر إلى الجنوب الملح والتمور والأقمشة والخيل والقمح والكتب(17).

مدينة تيشيت : من أعرق مدن الشناقطة في الحضارة والعلم وقد أسسها الشريف عبد المؤمن تلميذ القاضي عياض السبتي وقد سكنها أبناء الشيخ حماه الله ، ومازالت بقية منهم تقطنها إلى اليوم .

ويذهب صاحب الوسيط إلى ان مدينة تيشيت مدينة مشهورة وهي أقرب من تلك البلاد للسودان، وكان أهلها في ثلاثة أقسام، قسم يقال له الشرفاء، وقسم يقال له "اماسنة، وقسم يقال له أولاد بله (18)

وقد ازدهرت الحياة العلمية فيها منذ تأسيسها إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي حيث نزح وأصبحت قرية صغيرة يصعب الوصول إليها.

ومدينة تيشيت حسب محمد المختار مازالت قرية تضم كنوزا من المخطوطات العربية الإسلامية التي تخبرنا عن تحضرها واشعاعها وتأثيرها في القرون الماضية.(19)

الخاتمة :

ساهمت هذه المدن و المراكز العلمية التاريخية وغيرها في الشمال الإفريقي بشكل كبير وفعال عبر التاريخ في بناء جسور التواصل وتمتين العلاقات الدينية والثقافية والحضارية بالغرب الافريقي ولم تكن هناك حدود سياسية او جغرافية مصطنعة كما خلقها الاستعمار من أجل أهداف ايديولوجية واستعمارية وإيحاد قطيعة تامة بين المنطقتين ،كما أن الصحراء أيضا لم تكن عائقا كما يزعم البعض فكان اتجاه القوافل التجارية بشكل عامّ صوب الغرب الإفريقي أما من الشمال إلى الجنوب او العكس وكانت من أهم المسالك الصحراوية :

من سجلماسة، حيث ينطلق إلى مدينة ولاتة ثم منها إلى تمبكتو، وجني ، وجاوو.

من تلمسان،مارا بغرداية ،وتوات ، منتهيا إلى مدينة تمبكتو .

من تكرت وورقلة وهو طريق ينتهي إلى مدينة جاوو مباشرة وهو متصل كذلك شمالا بالموانى الجزائرية الهامة.

من فزان إلى مناطق برنو وكانم وجاوو .

*من وحدات الجريد في الجنوب التونسي*وهو أيضا تنطلق قوافله غالبا عبر ورقلة وغدامس وسوف . (20)

الهوامش

1_ les voies romains 'l'ibrairie Armand Colin 'Paris '1972 p 167 .

2_جوان جوزيف :الإسلام في ممالك و امبراطوريات إفريقيا السوداء ط 1 القاهرة 1984 ص 30.

فاي منصور : اسكيا الحاج محمد وإحياء دولة السنغهاي الإسلامية، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية بلييا ،1997، ص 34.

4_ R.Ma uny :tableau geographique est africain au Moyen age d'apres les sources ecrites 'la tradition et l'archeologie 'Amsterdam '1967'p 426.

5_محمد عيسى الحريري :الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس (160_ 290)ط 3 ، 1987 ، دار القلم للنشر والتوزيع ، الكويت ، ص 95 .

6_دندش عصمت :-دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا. دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط 1 ،1988، ص 42.

7_جعفري أحمد : علماء توات من خلال المخطوطات والوثائق التاريخية ، مجلة الثقافة عدد 113 _118 ، 1999 ص 205 .

8_محمد جوتية :مخطوطات اقليم توات عرض وتقديم نوال الشيخ باي الكنتي، مجلة الثقافة عدد 118 ، 1999 ، ص 285.

9_محمد بن عبد الكريم المغيلي أسئلة اسكيا وأجوبة المغيلي ص 18

10_البكري أبو عبيد : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 146.

11_ابن حوقل : صورة الأرض ط 2 ليدن، 1967 ، ص 25 .

12 _تقع ولاتة في الجنوب الشرقي لموريتانيا إلى الشمال من منطقة الحوض.

13_الشنقيطي أحمد الأمين :الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ،1958، ط1 ص 450

14 _ولد أباه محمد المختار، الشعر والشعراء في موريتانيا ، تونس ، الشركة التونسية للتوزيع د 1987 ص 21

15_ هكذا سماها أصحاب الحوليات من البحارة البرتغاليين. 16 _ الشنقيطي أحمد الأمين م س ، 22

17_ولد أباه محمد المختار، م،س ص 22

18 _الشنقيطي أحمد الأمين ، م س ،453

19 _ولد أباه محمد المختار، م س ص 23 .

20 _ عبد القادر زبادية مملكة سنغهاي في عهد الاسيقيين، الجزائر1971، ص 213 .